المجلد : 06 / العدد : 01. / الشهر: يناير /السنة: 2019. Issn: 2335- 1470

العناية بالمكتبات في الأندلس: (مظهر ثقافي وسلوك حضاري)

د.بوحسون عبد القادر
جامعة سعيدة

تاريخ الارسال:2018/12/27 تاريخ القبول: 2019/01/02 تاريخ النشر:2019/01/12

الملخص:

عرفت الحياة الثقافية بالأندلس عبر مختلف عهودها الإسلامية تطورا و ازدهارا كبيرا رغم تدهور الأوضاع السياسية والعسكرية، وقد ساهمت عوامل متعددة في هذا الازدهار مثل الإرث الثقافي والحضاري الموروث يضاف إليه حب الأندلسيون للعلم والعلماء وتشجيع الحكام لهذا المجال والمشاركة فيه، دون أن ننسى دور المؤسسات التعليمة بمختلف أصنافها، وإن هذا الازدهار الثقافي كان له انعكاس إيجابي على سلوكيات المجتمع حيث أكسبته الكثير من المظاهر الحضارية لعل أبرزها العناية بالكتاب قراءة ونسخا والاهتمام بالمكتبات والتنافس في إنشائها من قبل العامة والخاصة.

الكلمات المفتاحية:

الأندلس، المكتبات الفردية، البحث العلمي، الحضارة

مقدمة:

إن الحديث عن تاريخ الأندلس عبر مختلف عهودها الإسلامية يجرنا للتساؤل عن سبب الازدهار الثقافي والحضاري الكبير الذي عرفته البلاد منذ الفتح وإلى غاية السقوط، فعلى الرغم من التدهور الكبير للأوضاع السياسية والعسكرية بالبلاد إلا أن الحركة العلمية والثقافية والحضارية بصفة عامة عرفت ازدهارا كبيرا ومنقطع النظير حيث أقبل شعبها على مختلف العلوم والفنون[1]، واستقطبت المدن والحواضر الأندلسية مثل قرطبة واشبيلية وغرناطة وغيرها العديد من علماء المسلمين وغير المسلمين ممن هاجروا إليها طلبا للعلم والمعرفة.

وهذا الاهتمام بالعلم بدأ منذ دخول الأندلس في حيز الدولة الإسلامية حيث أبدى أهلها اهتماما كبيرا بهذا الجانب من خلال الخوض فيه وتشجيع أهله، فنشطت الحياة الثقافية أيّما نشاط في عهد الدولة الأموية ثم ملوك الطوائف ومن بعدهم المرابطين ثم الموحدين وأخيرا بنو الأحمر، وهذا راجع لطبيعة الأندلسيين المحبة للعلم وأهله، حيث عُرفوا بحرصهم الشديد على العلم حتى وصفهم المقري التلمساني صاحب كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب بأنهم أحرص الناس على التميز في هذا الجانب، والعلم عندهم مُعظم من قبل الخاصة والعامة[2]، ، ويروي لنا التاريخ قصصا رائعة عن

المجلد : 06 / العدد : 01. / الشهر: يناير /السنة: 2019. Issn: 2335- 1470

حب الأندلسيين للعلم ولو على حساب قوت يومهم ورزقهم، بل ولو اضطر الفرد لبيع كل ما يملك في سبيل العلم والمعرفة[3]، وهو ما جعل الثقافة والعلوم تكون سمة عامة بالمجتمع وغير مقتصرة على فئة محدودة أو معينة، فالعلم كان بمثابة الإرث الذي يُحافَظ عليه جيل بعد جيل[4].

وان هذا الحب الكبير للعلم والمعرفة من قبل العامة واكبه تشجيع كبير أيضا من قبل الحكام والسلاطين و الأمراء أمثال عبد الرحمان الداخل والمنصور بن أبي عامر والمعتمد بن عباد وغيرهم ممن كانت لهم رغبة كبيرة في العلم وأهله وحَفِلت مجالسهم بالعلماء والأدباء والفنانين[5] ، كما ساهمت المؤسسات التعليمية بدورها في تنشيط الحياة الثقافية من مدارس ومساجد وكتاتيب وزوايا حيث كانت محورا لمختلف الأنشطة الثقافية، وهي الأخرى حظيت برعاية الحكام من خلال التنافس في تشييدها والإنفاق عليها وجلب أكابر علماء العصر للتدريس بها[6].

وهذه العوامل الرئيسية المساهمة في الازدهار الثقافي والحضاري جعل البلاد تترك لنا منجزات ومظاهر علمية وفنية راقية لازلنا إلى اليوم نفتخر ونعتز بها، وهي تعد جزءً ثمينا من ذلك التراث الإسلامي الرائع، ففي المجال العلمي تركوا لنا مصنفات قيمة في مختلف العلوم، وفي المجال العمراني كانت آثارهم بديعة ولا تزال شاهدة على تميز وبراعة فنانيها ومهندسيها وبنائيها إلى يومنا[7].

ومن بين مظاهر الازدهار الثقافي والحضاري الكبير الذي وصل إليه الأندلسيون هو اهتمامهم الكبير والبالغ بالكتب والمكتبات، حيث كان سلوكا حضاريا مميزا في المجتمع الأندلسي وظهر التنافس فيه جليا بين مختلف شرائح المجتمع، ولا غريب في ذلك على مجتمع وصل إلى أرقى درجات التمدن والتحضر في العصر الوسيط ، وذلك لكون الإقبال على الكتب والمكتبات إحدى المعايير الهامة للسلوك الثقافي و الحضاري، فكلما كانت هنالك مكتبات كثيرة وكلما نشط فن النسخ والكتابة وتنافست فيه مختلف شرائح المجتمع إلا كان دليلا على ثقافة ذلك المجتمع وتحضره.

وفي الأندلس وكبقية البلاد الإسلامية كانت المكتبات بمثابة الوعاء الذي تُغترف منه العلوم، ولذلك حظيت هي الأخرى باهتمام السلاطين والولاة ورجال الفكر، فتسابقوا في اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات ، وكان هذا الأمر معروفا في كامل بلاد الأندلس وجميع العهود التاريخية لاسيما في قرطبة أيام الخلافة الأموية حتى قيل أن قرطبة هي المدينة الأكثر احتواء على الكتب [8] ، وقيل أيضا : **إذا مات عالما بيعت كتبه بقرطبة**" والأمر نفسه يقال عن إشبيلية زمن ملوك الطوائف [9] ، وتواصل هذا السلوك في غرناطة أيام بني الأحمر، حيث كان الأندلسيون يرتحلون إلى المغرب والمشرق سواء للحج أو طلب العلم والإجازة وحتى للتجارة، وفي طريق عودتهم يقتنون الكتب من تلك البلدان[10].

وما يميز مكتبات الأندلس أنها كانت منتشرة في كل مكان حيث نجدها في القصور الملكية والبيوت والمنازل الخاصة أو ملحقة بالجوامع والمساجد والمدارس وحتى في الحدائق والمتنزهات كانت توجد مكتبات في وقت لم يوجد عند الأوربيين في ذلك الوقت إلا مكتبات الأديرة ، و يمكن التميز بين نوعان من المكتبات بالأندلس: المكتبات الخاصة والعامة

المجلد : 06 / العدد : 01. / الشهر: يناير /السنة: 2019. Issn: 2335- 1470

. **المكتبات الخاصة:** أو الشخصية ويُعنى بجمعها أفراد من الناس رغبة منهم مثل مكتبات الأمراء والأغنياء والوزراء والعلماء، وهذه المكتبات التي اصطلح عليها أيضا مكتبات المنازل هي أول أنواع المكتبات الأندلسية ظهورا [11] ، وأكثرها عددا حيث انتشرت في جميع أنحاء الأندلس حتى أصبحت إحدى ملامح المجتمع البارزة وظهر التنافس الجلي في ذلك.

وقد ذكرت لنا المصادر التاريخية الكثير من أصحاب المكتبات المنزلية نذكر منهم:

. مكتبة محمد بن حزم: ت 282هـ/895م كانت تضم كتبا قيمة وناذرة حتى أن أدباء قرطبة كانوا يحسدونه عليها.

. مكتبة ابن ميمون: ت 400هـ/1009م و كانت هي الأخرى من أشهر المكتبات الخاصة بطليطلة.

. مكتبة عائشة القرطبية: ت 400هـ/1010م: والتي احتوت على نفائس الكتب آنذاك.

. مكتبة ابن حزم الأندلسي: ت 457هـ/1064م: نالت مكتبته شهرة كبيرة حتى قيل انه كان بها حوالي 400000 مجلد، وللأسف أحرقت معظمها بأمر من المعتضد بن عباد ملك اشبيلية بإيعاز من الفقهاء[12].

ومكتبات أخرى عديدة ذكرتها كتب التراجم الأندلسية حينما تُعرف بالعالم أو الشخصية المراد تعريفها فتذكر نسبه وتعليمه ورحلاته وشيوخه و مكتبته إن وجدت .

. **المكتبات العامة:** كانت مخصصة لجميع فئات المجتمع، وتوجد بالمساجد أو المدارس والكتاتيب والزوايا، وهي الأخرى حظيت باهتمام كبير لاسيما من قبل السلاطين حيث كانوا يوقفون عليها أوقافا كثيرة ويَحبِسون بها كتبا عديدة حتى وصلت إلى درجة عالية من التنظيم، ويمكن أن نلمس هذا التنظيم من خلال فتوى لقاضي الجماعة بغرناطة أبو القاسم بن سراج الأندلسي (المتوفى سنة 848هـ) لسائل سأله عن أمور تتعلق بنظام الإعارة من المكتبات بغرناطة، ونص السؤال يقول :"**...كتب محبسة في خزانة الجامع الأعظم فاشترط المُحبس فيها ألا تقرأ إلا في الخزانة و أن لا تخرج منها، ومنها ما اشتُرط** أن يخرج ولكن بعد وضع رهن، فهل يجوز أن يُتعدى على ما اشترط المُحبس؟ **"، وكان جواب القاضي بأنه لا يجوز التعدي على هذه الشروط**[13].

ومن خلال هذا الاستفسار من القاضي عن جواز ذلك يمكن أن نستنتج أنه كانت بالمكتبة أو الخزانة كما كانت تسمى في تلك الفترة كتبا لا تخرج (مطالعة داخلية)، وكتبا أخرى يمكن إخراجها لكن شريطة وضع رهن مقابل ذلك حتى يُضمن إرجاعها للخزانة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى التنظيم الذي وصلت إليه المكتبات بغرناطة، وما مدى حرص الأندلسيين على الكتاب وحفاظهم عليه[14].

ولا عجب أن تساهم هذه المكتبات مساهمة كبيرة في الحياة الثقافية بالأندلس، وإن إقدام الإسبان بعد سقوط غرناطة على إحراق آلاف الكتب[15] لدليل على ذلك الدور الكبير الذي كانت تؤديه وسط المجتمع الأندلسي، فيُذكر أن الكاردينال كيميناس قام بجمع عدد كبير من الكتب الإسلامية وألقاها في أكبر ساحات المدينة أين أضرمت فيها النيران، ما عدا ثلاثمائة من كتب الطب والعلوم، وقد

المجلد : 06 / العدد : 01. / الشهر: يناير /السنة: 2019. Issn: 2335- 1470

علق العالم الأمريكي وليام بريسكوت على ذلك بقوله:" **إن هذا العمل المحزن لم يقم به همجي جاهل وإنما حبر مثقف، وقد وقع لا في ظلام العصور الوسطى بل في فجر القرن السادس عشر، وفي قلب أمة مستنيرة تدين إلى أعظم حد بتقدمها إلى خزائن الحكمة العربية ذاتها**"[16]، ويقدر بعض المؤرخين كالمؤرخ الاسباني دوبلس عدد الكتب المحروقة بحوالي مليون وخمسة آلاف كتاب[17].

وإن صح هذا الرقم فهو لدليل على مدى الاهتمام الكبير. الذي لا شك فيه . من قِبل الأندلسيين بالكتاب والمكتبات، في وقت كان الأوربيون لا يعيرون اهتماما للكتاب وتسيطر الكنيسة على علومهم وثقافتهم، وما أحوجنا اليوم إلى العودة إلى هذا السلوك الحضاري المتمثل في الاهتمام بالكتاب والمكتبات وتشجيع القراءة.

الهوامش:

.(1). بوحسون عبد القادر، الأندلس على عهد بني الأحمر دراسة في التاريخ السياسي والثقافي، النشر الجامعي الجديد، تلمسان 2017، ص 106.

.(2) . المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد البقاعي، ج1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1998، ص181

.(3) . نفسه ،ج1، ص103.

.(4) . لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، القسم الثاني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2003، ص ص 29. 30.

(5). عبد القادر بوحسون ، المرجع السابق ص ص 236. 237.

.(6). نفسه ، ص 237.

.(7) . نفسه، ص 113.

.(8). Claudio sanchez, l Espagne musulmane ,traduction claude faraggi, opu, 1985, p 317-318.

.(9).محمد عبد الله حماد، التخطيط العمراني لمدن الأندلس الإسلامية، ندوة الأندلس، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، 1996، ص 168.

.(10).القلصادي، رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفال، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص ص96 . 108.

.(11). أشرف صالح محمد، مكتبات المنازل بالأندلس، مجلة قوارئ، العدد التاسع، ديسمبر 2017، ص 34

.(12). نفسه ص 35

.(13).ابن سراج الأندلسي، فتاوي قاضي الجماعة أبي القاسم بن سراج الأندلسي، جمع وتحقيق، محمد أبو الأجفال، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2000، ص 160.

.(14). عبد القادر بوحسون، المرجع السابق، ص 125.

.(15).محمد العروسي، المرجع السابق، ص251.

.(16).Anwar cheje , islam and the west moriscos, a cultural and social history, newyork 1983, p 06 .

.(17).محمد عبد الله حماد، المرجع السابق، ص169.